

الدرس الحادي والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال " يا عبادي
إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من
هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا
عبادي كللكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل
والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ،، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري
فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا
على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي
شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني
فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر
، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن
وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " رواه مسلم

الشرح..

هذا حديث قدسي ؛ والحديث القدسي هو الحديث الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله
تعالى " ، أو يرويه الصحابي بقوله " عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه " ، أو نحو ذلك من
العبارات .

وهو من كلام الله جل وعلا لأن هذه الكلمات لا يقولها النبي إلا ناقلاً ؛ فقلوه يا عبادي ..
يا عبادي .. يا عبادي .. ؛ هذا كله كلام الله عز وجل .

وهو حديث فيه دلالة على عظمة الله جل وعلا وكماله وجلاله وتنزهه تبارك وتعالى عما لا يليق بجلاله العظيم وكماله سبحانه وتعالى ، ويدل أيضاً على عظم فضله جل وعلا ومنه على عباده ، ويدل أيضاً على أن الأمور كلها بيد الله ، الطعام والشراب والغذاء والهداية والفلاح ؛ كل ذلك بيده .

ويدل أيضاً على أنه تبارك وتعالى غني عن العباد وعن طاعتهم ، وأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، ويدل أيضاً على كمال فضله وسعة جوده سبحانه وتعالى وأنه لا يتعاضمه حاجة أن يعطيها أو ذنب أن يغفره ؛ فالذي يريد من خيرات الدنيا والآخرة فليسأله جل وعلا ، ومن يريد إقالة عثرة أو غفران ذنب فليسأله جل وعلا ، لا يتعاضمه شيء مهما عظمت الحاجة ومهما كبر الذنب .

ويدل أيضاً على أنه سبحانه وتعالى أحصى على العباد أعمالهم وما قدموه في هذه الحياة وأنه يوفيههم بذلك يوم القيامة ..

إلى غير ذلك من المضامين العظيمة والدلائل المباركة المتعلقة بالاعتقاد والعمل .
فهو حديث قدسي جامع لأبواب الخير عقيدةً وعبادةً .

وهو يتكون من عشر جمل مبدوءة بهذا النداء . يا عبادي - ، أو هو متكون من عشر نداءات -
يا عبادي - عشر مرات تكررت في هذا الحديث ، والنبي صلى الله عليه وسلم نقل الكلام كما بلغه ربه جل وعلا . فأني وقع سيقون في قلب المؤمن الصادق عندما يسمع هذا النقل العظيم الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه رب العزة سبحانه وتعالى " يا عبادي .. يا عبادي .. يا عبادي .. متكررةً على الأسماع في هذا الحديث المبارك عشر مرات ؟

وهنا يفتح قلب المؤمن وتتهياً أحاسيسه ومشاعره لحسن الاستماع لما يرد في هذا الحديث من المضامين المباركة والأمور الجليلة ، ولا شك أن كل مرة ترد هذه الكلمة في الحديث - يا عبادي - لا شك أن لها شأنًا في قلوب أهل الإيمان ومكانة في قلوب الصادقين .

قال فيما يرويه ع ربه .. " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا " : فهو سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه فلا يفعله سبحانه ، ولا يقع منه جل وعلا ؛ {وما ربك بظلام للعبيد} ، {ولا يظلم ربك أحداً} ؛ فالظلم لا يقع منه جل وعلا ولا يفعله سبحانه . والظلم وضع الشيء في غير موقعه ، وهو نقيض العدل وضده ، والله سبحانه وتعالى عدل ؛ عدل في أحكامه الكونية القدرية ، وعدل في جزاءه سبحانه وتعالى ، وشرعه كله عدل . والظلم منزّه عنه جل وعلا ، والظلم نقص ، والعدل كمال ؛ فالله جل وعلا منزّه عن الظلم متصف بالعدل .

قال " وجعلته بينكم محرماً " : أي فيما شرعت وكتبته بين العباد ؛ شرعاً ودينياً الظلم محرم بينهم ؛ ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في تحريم الظلم والتحذير منه ، وبيان سوء مغيبته وخطر عاقبته .

قال " فلا تظالموا " : أي لا يظلم بعضكم بعضاً ؛ فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظالم عقابه عند الله جل وعلا أليم ، وعاقبته وخيمة .

ثم قال " يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم " : أي أن الهداية والصالح والتوفيق بيده جل وعلا ، والمهتدي من عباد الله من هداه الله ، يقول الله تعالى {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} .

قال " كلّم ضال " : ضالٌّ عن طريق الاستقامة ، وعن سبيل الهداية ، وعن علوم الشريعة ، وعن حقائق الدين وتفصيل الإيمان .

قال " إلا من هديته " : من كتبت له هداية لمعرفة الدين وتفصيله وشرائعه وأحكامه ؛ ولهذا قال جل وعلا لنبيه عليه الصلاة والسلام {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} ، وقال في الآية الأخرى {ووجدك ضالاً فهدى} ؛ أي ضالاً عن تفصيل الشرائع والأحكام .

فالهداية إلى تفصيل الدين وحقائق الإيمان وشرائع الإسلام ؛ هذا لا يكون ولا يقع لأحد إلا إذا منّ عليه الله سبحانه وتعالى بذلك ، ولا يمكن لبشر أن يحصل من ذلك على شيء لا لنفسه ولا لغيره إلا إذا كتب الله جل وعلا ذلك ؛ ولهذا قال الله جل وعلا لنبيه عليه الصلاة والسلام {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ، وقال {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين} ؛ فأمر الهداية بيد الله سواءً هداية الإنسان لنفسه إلى الصراط المستقيم أو هدايته لغيره ؛ كله

بيد الله جل وعلا؛ وهذا معنى قوله "كلكم ضال - وهذا من صيغ العموم - إلا من هديته " ؛ أي إلا من كتبت له هدايةً وصلاً واستقامة .

ولا يتنافى هذا الحديث مع قوله عليه الصلاة والسلام " كل مولود يولد على الفطرة " ، وكذلك قوله جل وعلا في الحديث القدسي " خلقت عبادي حنفاء فأتتھم الشياطين فاجتالھم عن دينھم " ؛ فالعبد مع كونه مولوداً على الفطرة؛ هدايته إلى الصراط المستقيم وحقائق الإيمان وتفاصيل الشرائع والبعد عن ظلمات الجهل والباطل {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} ؛ هذا كله لا يتحقق لعبد إلا إذا كتبه الله سبحانه وتعالى له .

" فاستهدوني أهدكم " : أي اطلبوا مني الهداية ؛ فالسين للطلب .

أطلبوا الهداية من الهداية بيده وهو الله سبحانه وتعالى .

" أهدكم " : أوفقكم لها وأيسركم لها ؛ وهذا فيه أهمية سؤال الله جل وعلا الهداية ، وفيه دلالة على أن سؤال الله تبارك وتعالى الهداية هو أهم سؤال وأعظمه ؛ فإن سؤال الله الهداية هو سؤاله لأعظم مطلب وأجل مقصد ؛ ولهذا كان هذا السؤال فرضاً على المسلمين في اليوم واللييلة سبعة عشرة مرة ؛ قال تعالى {اهدنا الصراط المستقيم} .

ولهذا كثر في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام سؤال الله الهداية فعلاً وتوجيهاً ؛ جاء في دعواته هو الشريفة ، وجاء أيضاً فيما علمه الصحابة رضي الله عنهم من دعاء يدعوا الله به قال له علي رضي الله عنه قال " سل الله الهداية والسداد " ،

وفي دعاء القنوت لحديث الحسن قال " اللهم اهديني فيمن هديت " ،

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاح صلاة الليل " اللهم اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .

وكان إذا خرج من بيته يقول " اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل " ،

وكان يقول في دعاءه كما في الصحيحين " اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذُ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني " ،

وكان من أكثر دعائه " يامقلب القلوب ثبت قلبي إلى دينك " ؛ إلى غير ذلك مما صح وثبت

عنه صلوات الله وسلامه عليه .

فسؤال الله جل وعلا الهداية هو أعظم مطلب وأجل مقصد ؛ ولهذا ينبغي على العبد أن يكثر من هذا الدعاء وأن يُعنى به .

ثم تأمل هنا قول ربنا جل وعلا "استهدوني أهدكم" وهذا فيه أن الله جل وعلا سميع الدعاء وأنه قريب من العباد وأنه مجيب من دعاه ولا يخيب من ناداه ؛

قال " استهدوني أهدكم " ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول " لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء " لأن الله عز وجل وعد بأن يجيب من دعاه ، وأن يحقق رجاء من ناداه ؛ قال تعالى {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} ، وقال {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان} ، وهذا المعنى ظاهر في الحديث "استهدوني أهدكم" ؛ ولهذا ما أحرى العبد وأجدره بأن يكون دائماً وأبداً ملحاً على الله بسؤال الهداية قائلاً : اهدنا الصراط المستقيم ، أو : اللهم إني أسألك الهدى والسداد ، أو كما في الحديث الآخر : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى ، أو غير ذلك من الصيغ .

وهنا قال : "استهدوني" : أي اطلبوا مني الهداية ، ولم يذكر المتعلق فيعُم ؛ ولهذا قوله : اهدنا أو اللهم إني أسألك الهدى والسداد ؛ هذا يتناول الهداية لكل خير ، الهداية للجنة والهداية للصرط المستقيم ، والهداية للعلم النافع ، والهداية للقيام بالعمل الصالح ، والهداية للثبات على هذا الدين والسلامة من الضلال .. إلى غير ذلك ؛ فهذا يتناول ذلك كله .

فالشاهد أن هذه دعوة عظيمة ومطلب جليل ينبغي على المسلم أن يعنى به ، ويسأل الله الهداية وهو معتقد ومقرّ ومؤمن أن هدايته بيد ربه ، لا يملك هو هداية نفسه ولا يملك نجاتها ولا سلامتها من الزيغ والضلال ؛ فهذا بيد الله ؛ فيلح على الله بالدعاء ويُتبع الدعاء بذل السبب ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " .

قال في الجملة الثالثة " يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم " : وهذا فيه أن الله هو وحده هو الرزاق ، وأن الرزق بيده والنعمة بيده ؛ فهو جل وعلا الذي بيده الرزق {وما من دابة إلا على الله رزقها} ، {فابتغوا عند الله الرزق} .

فالرزق كله بيد الله جل وعلا ، وهو المتفضل على العباد المتكفل بأقواتهم وأرزاقهم وشرابهم وطعامهم وغذائهم ؛ ولهذا قال "كلكم جائع إلا من أطعمته" ؛ أي إلا من مننت عليه بالطعام

والغذاء وإلا يبقى جائعاً ؛ وهذا فيه أن كل طعام يطعمه العبد فهو بتيسير الله جل وعلا ورزقه في الناس والدواب ، أرزاق العباد بيد الله وهو المتفضل بها سبحانه وتعالى .

قال " فاستطعموني أطعمكم " : أي اطلبوا مني ذلك ؛ ولهذا كان من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح يقول : " اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً " ، فرزق العباد بيد الله جل وعلا ؛ وهذا يفيد المسلم فائدة عظيمة وهي البعد عن الحرام وأكل المحرمات أو الوقوع في جلب الأموال من طرق محرمة، لماذا يفعل العبد ذلك ورزقه بيد الله ؟ أطلبه منه جل وعلا وابذل السبب المباح المشروع { فابتغوا عند الله الرزق } ، { فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه } وكم هي واسعة وكثيرة أبواب الرزق المباحة بتوفيق الله جل وعلا ومنه لعباده .

قال " فاستطعموني أطعمكم " : وفي الحديث دلالة على باب الشكر ؛ فما يكون عندك من طعام أو شراب أو غذاء أو كساء هذه منة الله عليك ؛ فكن لله حامداً وشاكراً لله على نعمائه ؛ وقد كان من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام حمد الله إذا فرغ من الطعام بصيغ عديدة ثبتت عنه ، وقال عليه الصلاة والسلام " إن الله ليرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها " وكان عليه الصلاة والسلام كما ثبت في الصحيح إذا أوى إلى فراشه لينام قال " الحمد الذي أطعنا وسقانا وكفانا وآوانا وكن من لا كافي له ولا مؤوي " ؛ فالعبد ينبغي عليه دائماً أن يذكر نعمة الله عليه في الطعام والشراب والكساء والمأوى ، وأن يكون حامداً شاكراً لله جل وعلا .

قال " يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم " : هذا اللباس الذي يوارى به العبد سوائه ، ويلبسه متجماً ومتزيناً به ؛ هذا منة من الله وفضل منه سبحانه وتعالى ، سحر للعباد وسائل كثيرة ومجالات عديدة يتخذون منها اللباس ؛ من أصوافها ومن أوبارها ومن أشعارها .. ؛ فأكرم الله جل وعلا العباد باللباس بأنواعه ، ولباس للشتاء ، ولباس للصيف ولباس للبرد ولباس للحر ؛ هذا كله من فضل الله جل وعلا .

ولهذا على العبد أن يدعو الله ويسأله سبحانه وتعالى حاجته من لباس أو غير ذلك حتى ولو انقطع شسع نعله يسأل الله ، كل حاجتك عند الله سبحانه وتعالى ويده .

" أكسكم " : أي أمنٌ عليكم بالكساء - وهو اللباس - ؛ وهذا فيه أهمية الدعاء لذلك ، ومن الدعوات الماثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام " اللهم آمّن روعاتي واستر عوراتي " ؛ وهذا جاء مطلقاً غير مقيد

بوقت ، وجاء مقيداً في أذكار الصباح والمساء ؛ ويدخل في عموم قوله "واستر عوراتي" المنه في اللباس الذي يتجمل به المرء ويستتر به عورته ؛ فهذه منه الله سبحانه وتعالى وفضله على عباده .

ثم قال " يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ... " : أي أخطاؤكم كثيرة وعديدة منها ما يقع بالليل ومنها ما يقع بالنهار ، كلكم تذنبون كما جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " ، قال هنا " يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ... " والعبد عرضة للخطأ والزلل والهفوة، لكن المؤمن يعلم دائماً وأبداً أن ربه توابٌ غفورٌ رحيم ؛ ولهذا يسارع المؤمن بالتوبة والإنابة إلى الله جل وعلا وطلب غفران الذنوب ؛ ولهذا قال :

" وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم " : وقوله " أنا أغفر الذنوب جميعاً " فيه طردٌ للقنوط واليأس الذي ربما يستولي على بعض الناس أو يمليه لهم الشيطان عندما تكثر منهم الذنوب ، فإذا تحرك في قلبه شيءٌ من الإقبال على الله والرغبة في التوبة ؛ أوهمه الشيطان أو نفسه الأمارة بالسوء أن حجم ذنوبه كبير وعددها كثير ، فربما استولى عليه قنوطه ولهذا قال هنا " وأنا أغفر الذنوب جميعاً " : يعني مهما عظمت ومهما كثرت فلا تقنط ؛ ولهذا قال جل وعلا في سورة الزمر { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم } أي بالمعاصي والذنوب فكثرت منهم وتعددت { لا تقنطوا من رحمة الله } لا يستولي عليكم قنوط مهما كان حجم الذنب ومهما كانت كثرت { إن الله يغفر الذنوب جميعاً } أي في حق من تاب منها وأتاب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا لا تعارض بين هذه الآية وقول الله جل وعلا في الآية الأخرى { إن الله لا يغفر أن يشرك به } فالمراد هنا أي في حق من مات على ذلك ، من مات مشركاً ؛ أما مادام الإنسان حي فإن باب التوبة أمامه مفتوح من أي ذنب مهما عظم الذنب وكبر الجرم ، فهو سبحانه وتعالى " ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل " .

" فاستغفروني أغفر لكم " : أي اطلبوا مني المغفرة ؛ أغفر لكم الذنوب بسترها والتجاوز عنها ؛ فهو جل وعلا غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، ومن استغفر الله جل وعلا وطلب منه الغفران غفر له ، ومن أسماه سبحانه وتعالى الغفور والغفار ؛ فهذا فيه أولاً ضعف العبد وأنه عرضة للزلل والوقوع في الذنب ، وفيه عظم من الله سبحانه وتعالى وفضله على العباد بغفران الذنوب والتجاوز عن الزلات وأن العبد المؤمن إذا علم أن له رباً يغفر الذنب ويتجاوز عن الذنب وطلب منه المغفرة لا يرده الله سبحانه وتعالى بل يغفر له .

ثم قال " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " : وهذا فيه غناه جل وعلا عن العباد؛ { يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد }؛ فالله سبحانه وتعالى غني عن العباد وعن طاعاتهم وعن عباداتهم وعن استغفارهم وعن توبتهم وعن ركوعهم وسجودهم .. إلى غير ذلك ؛ غني عن ذلك كله لا تنفعه طاعة من أطاعه ، ولا تضره سبحانه وتعالى معصية من عصاه ؛ فالعباد لم يبلغوا نفعه ولم يبلغوا ضره ، وكل ما يقع من العباد من أفعال خير وبر وإحسان وكرم وغير ذلك من أبواب الخير ؛ كل ذلك لا ينفعه جل وعلا ولا يزيد في ملكه ؛ لأنه غني عن العباد وعن طاعاتهم وعن عباداتهم . وكذلك ما يقع من العباد من مساوئ وشنائع وكفر وضلال وفجور ؛ هذا كله لا يضره سبحانه وتعالى شيئا . فقلوه جل وعلا " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " ؛ هذا فيه كمال غنى الله جل وعلا عن العباد وأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصاه { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها } أما الله سبحانه وتعالى فلا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين .

ثم قال " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا " : وهذا فيه تقرير لما سبق وهو أن العباد لن يبلغوا ضره ولن يبلغوا نفعه ، ولو أنهم كانوا جميعاً على الطاعة والهداية والاستقامة لا ينفعه شيئا ، ولو أنهم كانوا جميعاً على الفجور والظلم والكفر لا يضره شيئا جل وعلا .

فهذا فيه أنه سبحانه وتعالى لا يزيد ملكه طاعة من أطاع ، ولا ينقص أيضاً ملكه معصية من عصى ، ، فطاعة الطائعين وصلاح الصالحين واستقامة المستقيمين هذه لا تزيد ملك الله شيئا ، وأيضاً كفر الكافرين وضلال الضالين وفجور الفاجرين أيضاً لا ينقص ذلك من ملكه شيئا ، قال " لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا " يعني لو أن الأولين والآخرين من الثقلين - الجن والإنس - كانوا جميعاً في التقوى على حال أتقى رجل منهم ما زاد ذلك في ملك الله شيئا ؛ وأتقى رجل هو سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عكس ذلك لو كانوا جميعاً من الثقلين - الجن والإنس

— عل أفجر قلب رجل مهم ؛ أي حالهم واحدة حال أفجر رجل منهم أيضا لا ينقص ذلك ملك الله شيئا ، هذا فيه أن الله سبحانه وتعالى لا يزيد ملكه طاعة من أطاع ولا يُقص ملكه معصية من عصى ، بل طاعة الطائعين تنفعهم وعصيان العاصين يضرهم كما قال الله { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها }

ثم قال " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أُدخل البحر " : وهذا فيه بيان سعة خزائنه وأن خزائنه ملاء لا يغيظها نفقة مهما كانت النفقة ومهما كان العطاء ، ولو أن العباد الأولين منهم والآخرين ، الإنس والجن قاموا في صعيد واحدة في أرض واحدة في وقت واحد بلحظة واحدة وسألوه ، كل سأل حاجته ورغبته وأعطاهم جميعا ما سألوه ، وتأمل أيضا ماذا ستكون المسائل تنوعا وتعددا وكثرة وأعطاهم جميعا ما سألوا ما نقص ذلك من ملكه إلا كما ينقص المحيط - الابرة - إذا أُدخل البحر؛ أي عندما تُغمس الإبرة في البحر ؛ فهي لا تحمل شيئا ولا ترى عليها أثرا ؛ فهذا فيه أنه لا ينقص من ملكه سبحانه وتعالى شيئا مهما كان العطاء ، وهو جل وعلا عطائه كلام ومنعه كلام {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} وهذا فيه سعة خزائن الله وأن خزائنه ملاءى ولا يغيظ خزائنه شيء مها كان العطاء والمن والتفضل .

وهذا فيه دلالة من جهة أخرى على كمال سمع الله وإن لم يُنص عليه في الحديث لكن يدل عليه ، وأن العباد كلهم لو قاموا في صعيد واحد - كما يدل على ذلك هذا الحديث - وكلهم سألوه أجمعون في لحظة واحدة ، وكل سأل بلغته ولهجته، وكل سأل حاجته ؛ لسمعهم تبارك وتعالى أجمعين دون أن يختلط عليه صوت بصوت ، ولا حاجة بحاجة ولا لغة بلغة كما قالت عائشة رضي الله عنها " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات "

ثم قال " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها " : أحصيها لكم في هذه الحياة الدنيا ؛ فكل ما يقوم به الإنسان محصى عليه من أعمال خير وصلاح أو أعمال شر وفساد .

" أوفيكم إياها " : أي تجدوها وافية كاملة يوم القيامة ، لم ينقص منها شيء .

" فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " : من وجد يوم القيامة في صحائف أعماله خيراً وصلاً وطاعةً وعبادةً ؛ فليحمد الله الذي هداه ووفقه وأعانه وسدده وثبته .

" ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " : لأنه جنى على نفسه بتفريطه وتضييعه وعدم إقبال على الله دعاءً ورجاءً وخوفاً ورهباً ، وعدم إقباله على الله بفعل الأسباب التي تقربه إلى الله عز وجل وينال بها ثوابه وينجو بها من عقابه .

الشاهد أن هذا الحديث حديث قدسي عظيم جامع لأبواب عظيمة من أبواب الإيمان والخير والبر والطاعة ، ويفتح للعباد باباً واسعاً في حسن الصلة بالله والإقبال على الله والتوكل عليه والطمع فيما عنده وحسن سؤاله ودعائه ورجائه .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[الأول : قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :

هذا من الأحاديث القدسية، وهذه العبارة من العبارات التي يُعبر بها عن الحديث القدسي ، مثلها عبارة " قال الله عز وجل فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم " والحديث القدسي هو ما يسنده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه تعالى ويضيفه إليه ، ويشتمل على ضمائر المتكلم التي تعود إليه سبحانه وتعالى] .

الشرح..

الحديث القدسي هو الذي يأتي بمثل هذه الصيغة إما أن يقول الصحابي " عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى أو يقول الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال " و الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله جل وعلا ، وهذه الكلمات - كما قدّمت - من مثله يا عبادي يا عبادي .. ؛ هذه لا يقولها النبي عليه الصلاة والسلام ولا غيره ؛ فلا يقولها إلا الله .

والضمائر في قوله : حرمتُ ، جعلتُه ، هديتُه .. ؛ هذه الضمائر عائدة إلى الله سبحانه وتعالى وهي تُؤكد المعنى الذي أشرتُ إليه وهو أن هذا كله كلام الله سبحانه وتعالى لفظاً ومعنى ، فالذي يقول "يا عبادي" هو الله ، والذي بيده الهداية "من هديته" ، "من أطعمته" ، " من كسوته " .. إلى آخره هذا كله كلام الله سبحانه وتعالى هو المتكلم به ، لكن قوله

"يا عبادي" الإضافة هنا . إضافة العباد إلى الله ممن وفقهم إلى العمل بهذه النداءات وبهذه الأوامر؛ لهم شرف عظيم ومكانة عليّة كما قال الله {وعباد الرحمن}.

[ثانياً : قول الله سبحانه وتعالى "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" : الظلم وضع الشيء في غير موضعه قد حرمه الله على نفسه ومنع منه مع قدرته عليه وعلى كل شيء ، فلا يقع منه الظلم أبداً لكمال عدله سبحانه وتعالى ، قال الله عز وجل {وما الله يريد ظلماً للعباد} ، وقال {وماربك بظلام للعبيد} ، وقال {إن الله لا يظلم الناس شيئاً} ، وقال {إن الله لا يظلم مثقال ذرة} ، وقال {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً} أي لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته أو تحميله سيئات غيره ، ونفي الظلم عن الله عز وجل في هذه الآيات متضمن إثبات كمال عدله سبحانه . قال ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم :

وكونه خلق أفعال العباد وفيها الظلم لا يقتضي وصفه بالظلم سبحانه وتعالى كما أنه لا يوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد وهي خلقه وتقديره ؛ فإنه لا يوصف إلا بأفعاله ، لا يوصف بأفعال عباده فإن أفعال عباده مخلوقاته ومفعولاته، وهو لا يوصف بشيء منها إنما يوصف بما قام به من صفاته وأفعاله، والله أعلم .

وقد حرم الله تعالى على عباده الظلم فلا يظلم أحد نفسه ولا يظلم غيره [.

الشرح..

قوله جل وعلا " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا " فيه أنه جل وعلا حرم الظلم على نفسه ، وهو جل وعلا قدير على ذلك لا يعجزه شيء لكنه حرمه على نفسه أي منعها منه ؛ فلا يفعل ذلك ولا يقع منه سبحانه وتعالى الظلم ؛ ولهذا جاءت الآيات الكثيرة بالإخبار عنه سبحانه وتعالى بأنه لا يظلم العباد شيئاً ولا يخاف العباد عنده سبحانه وتعالى ظلماً ولا هضماً لكمال عدله سبحانه وتعالى . ونفي الظلم يتضمن ثبوت كمال العدل ؛ لأن قاعدة أهل السنة في باب النفي أن ما ينفي عن الله في الكتاب والسنة ليس نفيّاً صرفاً ؛ وإنما هو نفي متضمن ثبوت كمال ضد المنفي ؛ فنفي الظلم عنه سبحانه وتعالى يتضمن ثبوت كمال العدل له جل وعلا فهو حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً ونهاهم عنه قال " فلا تظالموا " ولهذا لا يجوز للإنسان أن يظلم نفسه ولا أن يظلم

الآخرين ؛ فالظلم حرام سواء يظلم نفسه { فمنهم ظالمٌ لنفسه } بالمعاصي والآثام والمحرمات .. ، أو ظلم الآخرين بالاعتداء على حقوقهم ، أو بأشنع الظلم وأفضعه وهو الشرك بالله ؛ لأن الظلم الذي يقع من العباد أنواعٌ ثلاثة كما في الحديث : قال عليه الصلاة والسلام "دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة ديوان لا يغفره الله وديوان لا يتركه الله وديوان لا يعبأ الله به " ثم بين ذلك ؛ فالذي لا يغفره الله الشرك ، والذي لا يتركه الله ظلم العباد بعضهم ببعضهم ، والذي لا يعبأ الله به ما دون ذلك .

[الثالث : قوله "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم" قال ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم : قد ظن بعضهم أنه معترض لحديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " يقول الله عز وجل خلقت عبادي حنفاء - وفي رواية مسلمين - فاجتالهم الشياطين " ، وليس كذلك ، فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيئ لذلك والاستعداد له بالقوة ، لكن لا بد للعبد من تعليم الإسلام والميل إليه قبل التعليم جاهل لا يعلم شيئاً كما قال الله عز وجل {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم {ووجدك ضالاً فهدى} والمراد وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة كما قال تعالى {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق ، فإن هداه الله سبَّب له من يعلمه الهدى فصار مهتدياً بالفعل بعد أن كان مهتدياً بالقوة وإن خذله الله قيَّض له من يعلمه ما يُغير فطرته كما قال صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " ، وفي هذا الحديث الأمر بسؤال الله الهداية وهي تشمل هداية الدلالة والإرشاد وهداية التوفيق والتسديد ، وحاجة العباد إلى الهداية أشدُّ من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ قد جاء في سورة الفاتحة {اهدنا الصراط المستقيم} ؛ فهم يسألون الله عز وجل أن يثبتهم على الهداية الحاصلة وأن يزيدهم هدى على هدى] .

الشرح..

وهذا فيه بيان لقوله سبحانه وتعالى " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم " ، وأن في ذلك دلالة على أهمية سؤال الله تبارك وتعالى الهداية وأن الهداية بيد الله جل وعلا ،

وهي تشمل جميع أنواع الهداية في الدنيا والآخرة ، الهداية إلى العلم وإلى العمل وإلى الثبات وإلى الموت على الحق والهدى والتثبيت عند السؤال ودخول الجنة .. ؛ فكل هذا يتناوله قوله "فاستهدوني أهدكم" وهذا الحديث ليس بينه وبين قول الله جل وعلا في الحديث القدسي "خلقت عبادي حنفاء - وفي رواية مسلمين - فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم" هذا ليس معارض كما بيّن ذلك أهل العلم...

[الرابع : قوله "يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم" في هاتين الجملتين بيان شدة افتقار العباد إلى رهم وحاجتهم إليه في تحصيل أرزاقهم وكسوتهم ، وأن عليهم أن يسألوه سبحانه وتعالى طعامهم وكسوتهم] .
الشرح..

قوله " يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم " هذا فيه فقر العباد لله جل وعلا من كل وجه وأنهم فقراء إلى الله سبحانه في طعامهم وشرابهم ولباسهم وسائر شؤونهم و أن حاجاتهم كلها بيد الله وأن عليهم على العباد أن يطلبوا ذلك من الله بالدعاء وبذل الأسباب التي شرعها.

[الخامس قوله " يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ": أوجب الله عز وجل على العباد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات ، والعباد يحصل منهم التقصير في أداء ما وجب عليهم والوقوع في شيء مما تُهوا عنه وطريق السلامة من ذلك رجوعهم إلى الله وتوبتهم من ذنوبهم وسؤال الله عز وجل أن يغفرها لهم ، وفي الحديث " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ". حديث حسن أخرجه بن ماجه وغيره .
الشرح..

" يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار " فيه ضعف الإنسان وأنه عرضة للخطأ والزلل والوقوع بالذنوب والتقصير وفيه أيضا طرد للقنوط لهذا قال " وأنا أغفر الذنوب جميعاً " مهما يقع فيه الإنسان من زلل لا يقنط ولا ييأس بل عليه أن يتوب والله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا والله قال " فاستغفروني أغفر لكم " أي اطلبوا مني المغفرة

[السادس: قوله " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " قال ابن رجب رحمه الله: يعني أن العباد لا يقدر أن يوصلوا نفعاً ولا ضرراً ، فإن الله تعالى في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعة العباد ولا يعود نفعها إليه ؛ وإنما هم ينتفعون بها ، ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها ؛ قال الله تعالى ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ ، وقال ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ .

الشرح ..

قوله " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " فهذا فيه كمال غنى الله سبحانه وتعالى عن العباد ، وأن غناه ذاتي ، كما أن فقر العباد إلى الله فقر ذاتي ؛ فهو غني جل وعلا عن العباد من كل وجه ، لا يمكن للعباد أن يبلغوا نفعه بشيء ولا أن يبلغوا ضره بشيء ؛ فهو غني عنهم ، وهم فقراء إليه سبحانه وتعالى من كل وجه ؛ لا غنى لهم عنه طرفة عين .

فهذه الجملة فيها إثبات كمال غنى الله ، وأن طاعات العباد لا تنفعه ، وأن معاصيهم وفجورهم أيضاً لا تضر الله شيئاً .

• وفي الحديث الآخر قال تعالى " يؤذيني بن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار " ؛ فيوجد فرق بين الضر والإيذاء ؛ فهذه الكلمات - سب الدهر أو نحو ذلك - ؛ فهذا كلام يغضب الله سبحانه وتعالى ويسخطه ولا يرضاه من عباده ويمقت ويمقت سبحانه وتعالى فعله وفاعله ، أما الضر فالله لا يضره سب الدهر ولا سبه جل وعلا ولا سب دينه .. ؛ فهذا كله لا يضر الله شيئاً ، ما يفعله العباد من عدوان وعصيان وفجور هذا كله لا يضر الله سبحانه وتعالى شيئاً ؛ لكن قوله " يؤذيني بن آدم " هذه كلمات تسخط الله جل وعلا وتغضبه .

[السابع قوله " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " : في هاتين الجملتين بيان كمال ملك الله عز وجل

وكمال غناه عن خلقه ، وأن العباد لو كانوا كلهم على أتقى ما يكون أو أفجر ما يكون لم يزد ذلك في ملكه شيئاً ولم ينقص شيئاً وأن تقوى كل إنسان إنما تكون نافعة لذلك المتقي وفجور كل فاجر إنما يكون ضرره عليه] .

الشرح ..

هذه الجملة " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " فيهما كمال غنى الله سبحانه وتعالى عن العباد ، وأن طاعات الطائعين وتقوى المتقين لا تنفعه ، وأن عصيان العاصين وفجور الفاجرين لا يضره سبحانه وتعالى .

[ثامناً : قوله " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إلى أدخل البحر " هذا يدل على كمال غنى الله سبحانه وتعالى وافتقار عباده إليه ، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا أولهم وآخرهم وسأل كل ما يريد ، وحقق الله لهم ذلك ؛ لم ينقص ذلك مما عند الله إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، والمعنى أنه لا يحصل نقص أصلاً لأن ما يعلق بالمحيط وهو الإبرة من الماء لا يُعتبر شيئاً لا في الوزن لا في العين] .

الشرح ..

وهذا أيضاً فيه كمال غنى الله جل وعلا وافتقار العباد إليه وأن خزائن الله سبحانه وتعالى ملئى لا ينقصها شيء مهما كان العطاء كبيراً أو كثرةً ؛ ولهذا قال " فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص مما عندي إلا كما أنقص المحيط إذا أدخل البحر " .

وعطاؤه كلام ومنعه كلام كما قال سبحانه وتعالى { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } فالذي يريد أن يعطيه العباد يقول له كن فيكون كما أخبر سبحانه وتعالى لان مشيئته نافذة ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء

[تاسعاً : قوله " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " : الناس في هذه الحياة مكلفون بامتنال الأوامر

واجتناب النواهي ، وكل ما يحصل منهم من عمل خيراً أو شراً فهو محصى عليهم وسيجد كل أمامه ما قدم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، قال الله عز وجل { فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره } ، فمن قدم خيراً وجد ثوابه أمامه ، والثواب من فضل الله على العبد ، وفعل الخير في الدنيا هو من توفيق الله عز وجل للعبد فله الفضل أولاً وآخر ، ومن وجد أمامه غير الخير فإنما أتى العبد من قبل نفسه ومعصيته لربه وجنائته على نفسه ، فإذا وجد أمامه العذاب فلا يلومن إلا نفسه] .

الشرح..

في ختام الحديث القدسي قال " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " وهذا فيه تنبيه للعبد وتحذير وأن العبد إذا سعى في هذه الحياة بالأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات وابتعد عن المعاصي والآثام ؛ فسيجد يوم القيامة ثواب ذلك وأجره ، وعمله بالطاعات توفيق الله ومنته عليه ، وثوابه له جل وعلا له على ذلك يوم القيامة هو أيضاً من توفيق الله ؛ فليحمد الله على التوفيق للطاعة ، وليحمد الله على الثواب الذي منَّ عليه تبارك وتعالى به ؛ ولهذا أهل الجنة يحمدون الله عز وجل على ذلك المنِّ في الجنة { وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله } ؛ فهذهمنة الله سبحانه وتعالى عليهم ؛ ولهذا قال " فمن وجد خيراً فليحمد الله " يعني يوم القيامة ؛ ولهذا أهل الجنة كلهم يحمدون الله ، يدخلون الجنة حامدين لله سبحانه وتعالى على ما منَّ عليهم به في الحياة الدنيا من الهداية والاستقامة ، وعلى ما منَّ عليهم به يوم القيامة من النجاة من النار ودخول إلى الجنة والفوز بالفوز العظيم ؛ هذا كله منة الله سبحانه وتعالى وفضله ، ومن وجد يوم القيامة في صحيفة أعماله غير ذلك مما يوجب سخط الله ودخول النار ؛ فلا يلومن إلا نفسه ؛ لأنه فرط وضع وأهل وتمادى في الضلال والغى ، ولم يُقبل على الله دعاءً ورجاءً وسؤالاً ورغباً ورهباً ؛ إلى أن مات على هذه الحال فكان بذلك قد جنى على نفسه ؛ وبهذا لا يلومن إلا نفسه .

[عاشراً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن من الأحاديث ما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه يشتمل على ضمائر المتكلم ترجع إلى عز وجل ويقال له الحديث القدسي .

الثاني : تحريم الله الظلم على نفسه وتنزيهه عنه مع إثبات كمال ضده وهو العدل .

الثالث : تحريم الله الظلم على العباد لأنفسهم ولغيرهم .

الرابع : شدة حاجة العباد إلى سؤال ربهم الهدى والطعام والكسوة وغير ذلك من أمور دينهم ودنياهم .

الخامس : أن الله يحب من عباده أن يسألوه كل ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين .

السادس : كمال ملك الله عز وجل ، وأن العباد لا يبلغوا نفعه وضره ؛ بل يعود نفعهم وضرهم إلى أنفسهم.

السابع : أن العباد لا يسلمون من الخطأ ، وأن عليهم التوبة من ذلك والاستغفار .

الثامن : أن التقوى والفجور يكونان في القلوب لقوله " على أتقى قلب رجل " ، " على أفجر قلب رجل " .

وهذا نظير ما سبق وهو قوله صلى الله عليه وسلم " ألا إن في الجسد مضغة "

التاسع : أن ملك الله لا تزيده طاعة المطيعين ولا تنقصه معاصي العاصين .

العاشر : كمال غنى الله وكمال ملكه وأنه لو أعطى عباده أولهم وآخرهم كلَّ ما سألوه لم ينقص من ملك الله وخزائنه شيئاً .

الحادي عشر : حثُّ العباد على الطاعة ، وتحذيرهم من المعصية ، وأن كل ذلك محصى عليهم .

الثاني عشر : أن من وفقه الله لطريق الخير ظفر بسعادة الدنيا والآخرة والفضل لله

للتوفيق لسلوك سبيل الهدى والحصول الثواب على ذلك .

الثالث عشر : أن من فرط وأساء العمل ظفر بالخسران وندم حيث لا ينفع الندم.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*